مصطلح فقه اللغة:

الفقه: هو الفهم، وقد وردت مادة الفقه في القرآن الكريم عشرين مرة من ذلك قوله تعالى: >فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً<.

اللغة: مشتقة من لغا يلغو أي تكلم، فمعناها إذن الكلام، أما في الاصطلاح؛ فقد عرفها ابن جني في الخصائص قائلاً: >أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم<، فاللغة عنده ما يأتي:

١- أصوات منطوقة.

٢- وظيفتها التعبير عن الأغراض.

٣- إنها تعيش بين قوم يتفاهمون بها.

٤- إن لكل قوم لغة.

وعرفها ابن الحاجب: >بأنها كل لفظ وضع لمعنى<

وعرفها بعض المحدثين: >نظام من الرموز الصوتية أو مجموعة من الصور اللفظية تختزن في أذهان أفراد الجماعة اللغوية وتستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين<

أما فقه اللغة: فهو فهم اللغة والعلم بها وإدراك كنهها.

وفي الاصطلاح فإن تعريف فقه اللغة هو :>منهج للبحث استقرائي وصفي يعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة الشقيقة أو الأجنبية وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها وعناصر لهجاتها وتطور دلالتها ومدى نمائها<

تطور فقه اللغة عند العرب:

انقسمت المصنفات العربية القديمة على قسمين:

قسم يضم مجموعة من مباحث فقه اللغة في كتاب، والآخر يتناول مبحثاً واحداً فحسب، ولعل أقدم ما وصل هو مباحث الأصمعي (٢١٦هـ) عن الاشتقاق في العربية، ثم أنشأ ابن جني (٣٩٢هـ) كتابه (الخصائص) وهو الأجدر أن يسمى بفقه اللغة إذ ناقش مباحث مهمة وخطيرة في أصل اللغة وتقارب الألفاظ والمعاني واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين والاشتقاق الأكبر وغيرها، ثم أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) وذهب إلى أن اللغة إلهام وتوقيف وتناول خصائص هذه اللغة، ثم جاء الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ) في

كتابه (فقه اللغة وسر العربية) وتناول مباحث قليلة لا تشغل أكثر من ١٥ صفحة، وعرض ابن سيده (٤٥٨هـ) في كتابه المخصص لبعض بحوث نشأة العربية وخصائصها، والجواليقي (من علماء القرن السادس الهجري) في كتابه (المعرب من الكلام الأعجمي)، وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) في كتابه (المزهر في علوم اللغة) تناول نشأة اللغات وتداخلها والمعرب والمولد وغيرها، وأخيراً في القرن الحادي عشر عنى شهاب الدين الخفاجي بالألفاظ الدخيلة على العربية في كتابه (شفاء الغليل في ما ورد في كلام العرب من الدخيل).

الفرق بين علم اللغة وفقه اللغة:

أكثر مباحثهما متداخل لذا ليس من السهل تحديد الفروق الدقيقة بينهما، وأدى هذا التداخل إلى وجود مؤلفين عربيين، الأول: الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس، والثاني: المزهر في علوم اللغة للسيوطي.

ولم يكن فقه اللغة بمنأى عن علم اللغة بل كان وثيق الصلة به فمباحثه المتنوعة كما يقول سوسير :>مهدت السبيل لعلم اللغة التأريخي<

كلمة (الفيلولوجيPhilology) التي تعني (فقه اللغة) أصبحت محددة عند الألمان بدراسة النصوص اللغوية دراسة تأريخية مقارنة لمحاولة فهمها، والاستعانة بذلك في دراسة الفروع اللغوية الأخرى التي يبحث عنها علم آخر عندهم هو (علم اللغة)، ثم بدأت مرحلة أخرى من مراحل فقه اللغة الحديث عندما اكتشف العلماء أن اللغات يمكن الموازنة بينها، فنشأ فقه اللغة المقارن.

وبهذا نعني بفقه اللغة:(دراسة المباحث القديمة بأسلوب حديث)، أما علم اللغة فيتناول ما يأتي:

١- وصف تأريخ اللغات.

٢- تحديد القوانين التي تعمل في اللغات كلها.

٣- تحديد معالم علم اللغة.

والفارق الرئيس بين علم اللغة وفقه اللغة: أن علم اللغة يعنى بدراسة اللغات كافة دون الوقوف على لغة محددة، أما الثاني فيدرس لغة واحدة من اللغات (تأريخها-أصواتها-دلالة ألفاظها).

ومع هذا الفارق فإن هناك اتصالاً بينهما فكل واحد يقدم للآخر ما يتوصل إليه من بحث، فالبحوث التأريخية المتعلقة باللغات وهي ما يعنى به فقه اللغة مادة جيدة لعلم اللغة، ويقابل ذلك أن

القوانين العامة التي تتحكم في اللغات وهي التي اكتشفها علم اللغة ذات قيمة علمية لمباحث فقه اللغة كالبحث في الأصوات وتطور الدلالات والأثر الاجتماعي والديني للغة.

وقد ظهرت كلمة (فقه اللغة) في العالم العربي الحديث في الجامعة المصرية، وبخاصة عندما استقدم جماعة من المستشرقين سنة ١٩٢٦م ليعاونوا في التدريس.

إن كلمة (فيلولوجي) يصعب ترجمتها إلى العربية، وإن لها في اللغات الغربية معنى خاصاً لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب، فمنهم من يرى أن هذا العلم مجرد درس لقواعد الصرف والنحو، ومنهم من يرى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه يبحث في الحياة العقلية من جميع وجوهها.

نظريات نشأة اللغة:

اختلف العلماء كثيراً حول موضوع نشأة اللغات، ولم يصلوا إلى نتائج يقينية، يقول ماريوباي: >إن هذا الموضوع يعتمد على الأساطير والمناقشات الفلسفية وتنقصه الحقائق العلمية<، وقررت الجمعية اللغوية في باريس سنة ١٨٧٨ منع تقديم أبحاث عن هذا الموضوع.

وأهم النظريات التي عالجت موضوع نشأة اللغات هي كالآتي:

١- نظرية التوقيف: تقوم هذه النظرية على فكرة أن نشأة اللغة بتلقين إلهي لآدم (ع)، ويرجع بعض الباحثين هذه النظرية إلى الفيلسوف اليوناني (هيراكليت ٤٨٠ق.م) وغيره من الفلاسفة، ويعد أحمد بن فارس أشهر العلماء العرب القائلين بهذه النظرية فقد خصص لها باباً في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) سماه (القول على لغة العرب، أتوقيف أم اصطلاح) وقال فيه: >إن لغة العرب توقيف. ودليل ذلك قوله – جل ثناؤه – : >وعلم آدم الأسماء كلها<<

ويستدل أحمد بن فارس على صحة هذه النظرية فيقول: >والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق<

وقد رأى الدكتور عبده الراجحي أن هذه الأدلة التي قدمها ابن فارس متهافتة؛ (لأن موضوع الاحتجاج باللغة ليس دليلاً على كونها توقيفية، وإنما حصره في زمان معين بل في بيئة لغوية معينة يرجع لأسباب منهجية تتعلق بالصحة اللغوية، وبالبعد عن التأثر باللغات الأخرى، ومع ذلك فإنهم لم

يقفوا بالاحتجاج عند عصر الرسول ' بل ذهبوا به إلى عهد بشار بن برد أو إبراهيم بن هرمة أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي)

أما الدليل النقلي الأهم الذي اعتمد عليه ابن فارس هو قوله تعالى: >وعلم آدم الأسماء كلها<، وقد فند ابن جني هذا الدليل بقوله: >إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف<

ويعتمد القائلون بالتوقيف من الغربيين على نص ورد في سفر التكوين جاء فيه: >وجَبَلَ الرب الإله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها... فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع الحيوانات البرية<

وقد رأى بعض الباحثين أن هذا النص لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب نظرية التوقيف بل يكاد يكون دليلاً عليهم، ومن النقد الذي وجه لهذه النظرية أن النص القرآني المذكور وقع فيه خلاف من المفسرين حول هذه الأسماء.

٢- نظرية المواضعة والاصطلاح:تقوم على فكرة أن اللغة هي من صنع الإنسان، وذلك بالتواضع، والاتفاق، والاصطلاح على ألفاظها، ومدلولاتها.

وفكرة المواضعة والاصطلاح هذه غارقة في القدم، فمن أصحابها الفيلسوف اليوناني ديموكريت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن القائلين بها في العصور الحديثة الفيلسوف الانكليزي آدم سميث وغيره.

وقد رأينا ابن جني يذكر أن:>أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف<

مع أن ابن جني يبدو في الباب الذي عقده في كتاب الخصائص متردداً بين القول بالتوقيف والقول بالمواضعة والاصطلاح والقول بنظرية المحاكاة فقد كان الدكتور عبده الراجحي يجزم بأنه يرفض القول بأن نشأة اللغة عند ابن جني بالوحي والتوقيف، (وذلك لأن ابن جني معتزلي، والمعتزلة الذين ذهبوا إلى خلق القرآن ما كانوا ليذهبوا إلى أن اللغة وحي وإلهام، وذلك لأنه لا يتسق مع قدرة الإنسان وإن كانت بالكسب. على أن هناك سبباً آخر وذلك أن منهجه في كتابه كله وفي كتبه الأخرى ينبني على تناول اللغة بوصفها (مادة طبيعية محسوسة) مقياسها الوحيد هو الطبيعة والحس، ومن ثم فرّق بينها وبين الفقه الذي تعود أحكامه إلى حكمة إلهية لا تصل إليها الحاسة الطبيعية)

ومهما يكن من أمر فإن بعض المحدثين قد رأى أنه ليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي

أو تأريخي، بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فهذه النظم لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها.

٣- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة: خلاصة هذه النظرية أن اللغة إنما نشأت في الأساس تقليداً لأصوات الطبيعة: مظاهرها، وحيوانها، والأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت القطع، والكسر، والضرب، وغير ذلك.

وعند القائلين بهذه النظرية أن الإنسان إنما بدأ مسيرته اللغوية بمحاكاة أصواته الطبيعية المعبرة عن الانفعالات كالرعب، والحزن، والفرح، ومحاكاة أصوات الحيوانات، ومظاهر الطبيعة كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وحفيف أوراق الشجر، وكان يريد بهذه المحاكاة أن يعبر عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت، أو عن الحالات والملابسات التي تلازمه، مستخدماً في ذلك ما زُوِّدَ به من قدرة على إحداث أصوات مركبة ذات مقاطع، وكانت اللغة في بداية الأمر محدودة الألفاظ تشبه إلى حد كبير الأصوات الطبيعية التي تحاول تقليدها؛ ولذلك فقد كانت قاصرة عن تأدية المعاني بدقة، وتعويضاً لهذا القصور لجأ الإنسان إلى الحركات الجسمية والإشارات اليدوية لتصاحب الأصوات التي يتلفظ بها، وتساعد على تقريب المعاني المقصودة، وبتطور الحياة البشرية أخذ الإنسان يستغني تدريجياً عن مساعدة الحركات والإشارات.

ويبدو أن هذه النظرية التي يؤيدها الكثير من المحدثين كانت معروفة منذ القديم، فقد أشار إليها العالم العربي ابن جني إذ قال: >وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل<

ولهذه النظرية مؤيدون كثر من المحدثين، منهم في الغرب العالم الانجليزي وتني، ومنهم في العالم العربي الدكتور إبراهيم أنيس، وقد دافع الأخير عن هذه النظرية قائلاً: >الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت من تلك الأصوات الغريزية المبهمة، ثم سمت في تطورها ودلالتها، وأصبحت تعبر عن الفكر الإنساني<

ومن العلماء العرب المؤيدين لهذه النظرية أيضاً الشيخ الدكتور صبحي الصالح الذي يقول: >نلمح العلاقة الطبيعية بين الألفاظ الموضوعة لمحاكاة الألفاظ التي تصدر من الحيوانات، فالعصفور يزقزق، والحمام يهدل، والقُمْري يسجع، والهرء تموء، والكلب ينبح، والذئب يعوي...الخ. وأنت إذا قابلت مصادر هذه الأفعال: الزقزقة، والهديل، والسجع، والمواء، والنباح، والخوار، والعواء بالأصوات التي

تسمعها من الحيوانات أيقنت بأنها تقارب كثيراً أصول تلك الأصوات<

ويتحمس الدكتور على عبد الواحد وافي لهذه النظرية فيقول: >وهذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية... ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها، ولكن لم يقم كذلك أي دليل يقيني على صحتها... ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل، فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية... وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية... ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية، ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه، ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر إليه من عناصر<

ويظهر المستشرق فندريس فيرفض الأدلة التي ينتصر بها مؤيدو هذه النظرية، ويعتمد في رفضه على أنه (لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشون ليسوا بدائيين فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة)

٤- نظرية غريزة التعبير بأصوات مركبة:يعد العالم الألماني ماكس مولر والعالم الفرنسي رينان من أشهر القائلين بهذه النظرية، وهي تقوم على أن اللغة إنما نشأت بفضل غريزة خاصة زُوِّدَ بها جميع أفراد النوع الإنساني، وهذه الغريزة تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة كانقباض الأسارير وانبساطها وغيرها كلما قامت به حالات انفعالية معينة كالغضب والخوف والحزن وغيره.

ويرى القائلون بهذه النظرية أن هذه الغريزة التي كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها اتحاداً أدى إلى اتحاد المفردات، وتشابه طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى قد انقرضت تدريجياً بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى؛ لأن الإنسان لم يعد يستخدمها.

ويستمد ماكس مولر أدلته في تأييد هذه النظرية من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوربية، وهو يرى أن مفردات هذه اللغات جميعاً ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وهذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة، ويرى مولر كذلك بعد تحليل هذه

الأصول أن هذه الأصول تدل على معانٍ كلية، وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة، وهو يجد في دلالتها على معانٍ كلية برهاناً على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق.

ويرى الدكتور علي عبد الواحد وافي أن هذه النظرية فاسدة من عدة وجوه:

١- هذه النظرية لا تحل مشكلة البحث عن العوامل التي أدت إلى ظهور اللغة في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات، بل تضع مشكلة أخرى هي مشكلة الغريزة الكلامية.

٢- هذه النظرية هي من قبيل تفسير الشيء بنفسه، فهي تقول: >إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة، ذات مقاطع ودلالات مقصودة؛ لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات< وهذا مجرد تقرير للمشكلة نفسها في صيغة أخرى.

٣- قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث، وهذه القدرة مشتركة بين الإنسان وبعض الطيور.

ويرى الدكتور وافي أن (أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسمائة تمثل اللغة الإنسانية الأولى)

اللغات الجزرية الشمالية والجنوبية(السامية):

الاختلاف في التسمية:

تعددت التسميات على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية الآشورية وما انحدر منها، فأول من أطلق تسمية (الشعوب السامية) هو العالم الألماني (شلوتزر) سنة ١٨٧١م، والتسمية لم يخترعها اختراعاً بل اقتبسها من سفر التكوين الإصحاح العاشر الذي ورد فيه أن أولاد نوح الذين بقوا بعد الطوفان هم: (سام، حام، يافث) وتكونت الشعوب والقبائل من سلالتهم.

وقبيل الحرب العالمية الثانية اكتسبت لفظة الساميين معنى سياسياً جديداً حيث أطلقت على اليهود خاصة، وصارت عبارة العداء للساميين تعني العداء لليهود فزادت التسمية لبساً.

وتسجل اعتراضات على هذه التسمية كالآتي:

١- ليس هناك في التأريخ أمة تسمى الأمة السامية كي ننسب إليها هذه اللغات.

٢- كتاب سفر التكوين كان يقسم الشعوب على أساس سياسي وليس على روابط تجمعهم فمن

صادق اليهود أصبح من الساميين ومن عاداهم أصبح من غير الساميين، من ذلك:

أ- سفر التكوين ذكر أن (عيلام) من أبناء سام، وقد أثبت البحث الحديث أن اللغة العيلامية ليست من اللغات الجزرية (السامية) بل من الشعوب الهندو أوربية.

ب- سفر التكوين عدَّ الفينيقيين من شعوب الحاميين وأثبت البحث الحديث هم من شعوب الساميين.

وقد أطلق المرحوم (طه باقر) مصطلح (اللغات الجزرية) على لغات هذه الشعوب، وهي تسمية جغرافية في الأساس نسبة إلى جزيرة العرب بدلاً من مصطلح اللغات السامية.

واقترح فريق آخر تسمية (اللغات العربية القديمة) لتؤكد قدم العربية على أخواتها ولكن من العسير إطلاقها على بقية اللغات التي تختلف عن العربية القديمة والحديثة فكيف تكون اللغة الآكادية والفينيقية والعبرية والآرامية لغة عربية قديمة؟!

واختلف في الموطن الأصلي للغات الجزرية، ولعل أقرب الآراء إلى الصحة هو رأي العالم الفرنسي (أرنست رينان) والعالم الألماني (بروكلمان) في أن الموطن الأول لهذه الشعوب هو القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية.

ملخص عن اللغات:

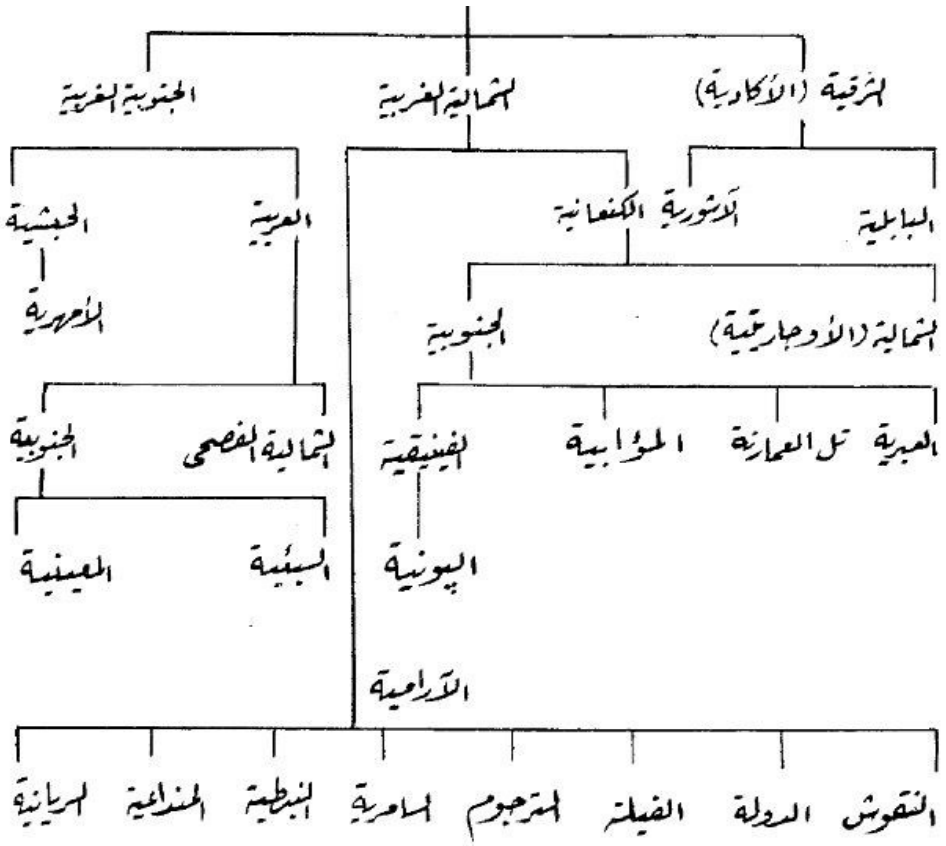

تنقسم اللغات الجزرية عموماً على: شرقية وغربية، كما تنقسم الغربية على: غربية شمالية، وغربية جنوبية.

أما الشرقية فهي اللغة الآكادية، وتنقسم على قسمين (البابلية والآشورية)، وقد وصلت إلينا في نقوش مختلفة، مكتوبة بالخط المسماري على الطين المجفف، ومن أهم هذه النقوش: النقش الذي دُوِّنَ به قانون >حمورابي< وهو من أقدم الشرائع الأرضية.

وموطن هذه اللغة هو بلاد الرافدين، وأكّاد اسم مدينة في شمال بابل بناها سرجون حوالي سنة ٢٣٥٠ق.م لتكون عاصمة لدولته، وقد ماتت هذه اللغة وإلى عهد قريب لم نكن نعرف شيئاً عنها، ولكن في سنة ١٨٤٢م قام القنصل الفرنسي في الموصل (بُوتّا) بعمل حفريات أدت إلى اكتشاف أجزاء قصر سرجون الثاني وهو أحد ملوك آشور.

وأما الجزرية الغربية الشمالية فتنقسم على الكنعانية والآرامية.

أما اللغة الكنعانية فتقسم على الكنعانية الشمالية والكنعانية الجنوبية.

الكنعانية الشمالية تمثلها >اللغة الأوجاريتية<وكانت هذه اللغة يتكلم بها في >أوجاريت< وهي

مدينة كانت تقع على بعد ١٢ كم في شمال اللاذقية، وتم اكتشافها في سنة ١٩٢٩م عن طريق الصدفة المحضة عندما كان فلاح يحرث أرضه واصطدم محراثه بكتلة ضخمة من الحجر وإذا بها مدخل لمقبرة فيها فخار من الطين وزهريات صغيرة لم تصب بسوء.

وأما الكنعانية الجنوبية فتشمل اللغة العبرية، وأهم نص كتب بها هو كتاب >العهد القديم< ويشمل: التوراة، وهي أسفار موسى الخمسة (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية)، وكتب الأنبياء والمكتوبات كمزامير داود.

وقد أدى انتشار اللغة الآرامية إلى تقلص ظل العبرية،فاضطر رجال الدين إلى ترجمة ما يحتاجون إليه من أدعية >العهد القديم< إلى الآرامية.

ومع بداية العصر الهليني انتهت حياة اللغة العبرية، فاكتسحتها اللغة الآرامية، وكان من السهولة التعامل بهذه اللغة الجديدة بدلاً من اللغة الأصلية بسبب التقارب الشديد بين اللغتين.

وكان زوال ملك اليهود السياسي وتدمير بيت المقدس سنة ٧٠م على أيدي الرومان من أعظم الحوادث التي غيرت من تأريخ اليهود الديني واللغوي، فقد أدى تشتتهم في بلاد العالم إلى تأثرهم بلغات تلك البلاد، وكان أكثر اللغات تأثيراً فيهم هي اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي، وقد بلغ هذا التأثر درجة جعلتهم ينظمون قواعد نحوهم على غرار قواعد النحو العربي، وينظمون أشعارهم على غرار أوزان الشعر العربي.

ومن الكنعانية الجنوبية كذلك >اللغة الفينيقية< وقد اكتشفت عن طريق نقش الملك >كِلَمُو< في تل >زنجيرلي< بسوريا وهو الآن محفوظ في متحف برلين الشرقية، وقد نشر الفينيقيون لغتهم عن طريق مستعمراتهم في أهم بلاد شاطئ البحر المتوسط.

أما القسم الثاني من أقسام الجزرية الغربية الشمالية هو >اللغة الآرامية<، فمن نقوشها القديمة نقش >تل حلف< على نهر الخابور حوالي (٩٠٠-٨٥٠ق.م)، وقد كتب باللغة الآرامية كذلك>أوراق البردي< التي عثر عليها في >جزيرة الفيلة< بـ(أسوان)، وقد دون بهذه اللغة ما يسمى بـ>الترجوم<، وهو ترجمة العهد القديم من العبرية إلى الآرامية.

وكان السامريون يتكلمون بالآرامية كذلك، وهم طائفة من اليهود لا يؤمنون إلا بالتوراة فقط أي أسفار موسى الخمسة.

وقد كتبت بالآرامية كذلك تلك النقوش النبطية والتدمرية ونقوش صحراء سيناء التي ترجع إلى المدة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي.

ومن لهجات الآرامية كذلك ما يسمى بـ>اللغة المنداعية< وهي لهجة طائفة >العارفين< المسيحية التي لا تزال موجودة في جنوبي العراق، وهي لهجة آرامية خالصة لم تتصل كلماتها وتراكيبها بالعبرية أو اللغات الأخرى.

وأهم لهجات الآرامية هي >السريانية<، وقد سمى الآراميون أنفسهم بالسريان بعد اعتناقهم الدين المسيحي لأن الاسم الشعبي القديم صار عيباً يدل على الكفر كما في لفظة (هليني) عند اليونان.

وقد تسبب الفتح العربي في استئصال شأفة الآرامية من البلاد التي كانت تتكلمها، ولم يفلت من ذلك إلا بعض الجهات الجبلية النائية مثل قرية >المعلولة< بالقرب من دمشق، و>طور عابدين< في العراق، وغيرهما من الأماكن التي لا تزال تتكلم الآرامية الحديثة الممتزجة بالكثير من التعبيرات العربية والكردية والتركية وغيرها.

أما القسم الغربي الجنوبي من اللغات الجزرية فيضم لغتين هما العربية والحبشية، أما الحبشية فهي لغة ذلك الشعب الجزري الذي خرج من جنوبي الجزيرة العربية إلى البلاد المقابلة لهم وهي الحبشة.

أما العربية فتنقسم على قسمين: الجنوبية والشمالية، أما الأولى فتسمى بـ>اللغة الحميرية< وموطنها اليمن وجنوبي الجزيرة العربية، وتنقسم على لهجتين هما السبئية والمعينية.

وأما العربية الشمالية فهي لغة وسط وشمال الجزيرة العربية، وهي التي تسمى باللغة العربية الفصحى التي كتب لها القرآن الكريم الخلود وانتشرت انتشاراً واسعاً.

وإلى جانب هذه الفصحى هناك لهجات عربية أخرى.

خصائص اللغات الجزرية:

١- تعتمد اعتماداً كبيراً على الأصوات الصامتة لا على الأصوات المتحركة، بمعنى آخر :يرتبط المعنى الرئيس للكلمة عند الجزريين بالأصوات الصامتة فيها، أما الأصوات المتحركة فهي لا تعبر في الكلمة إلا عن تحوير هذا المعنى وتعديله، أي أن المعنى الأصلي فيها مرتبط بالحروف التي تكون الكلمة.

٢- الغالب في جذر الكلمات في اللغات الجزرية أو السامية هي ثلاثية ويدخل عليها إضافات لتحوير المعنى وتعديله.

٣- تغلب على هذه اللغات الأصوات الحلقية كالعين والحاء والهاء، كما تتميز بالأصوات

المفخمة كالصاد والضاد.

٤- في الصيغ الفعلية لا تهتم هذه اللغات بالأزمنة الثلاثة وفروعها (الماضي، والحاضر والمستقبل) بقدر ما تهتم في هذه الصيغ بالحدث المنتهي والحدث الذي لم ينتهِ بعدُ؛ ولذلك نجد في العربية صيغتين للفعل، وهما: الماضي للحدث المنتهي، والمضارع للذي لم ينتهِ؛ ولذلك يصلح للحال والاستقبال.

اللغات العربية البائدة:

هي التي تسمى عربية النقوش، وهي اللغات التي انقرضت، وهي على ثلاثة أقسام: الثمودية، الصفوية، اللحيانية.

١- النقوش الثمودية: وتنسب إلى قبائل ثمود، وهي من عرب الشمال، سكنوا المنطقة التي تمتد من شمر إلى ساحل البحر الأحمر، ومن تبوك إلى العلا، حيث وجدت لغتهم مدونة على الحجارة في شبه جزيرة سيناء، وفي صحراء مصر الشرقية قبل ٧١٥ ق.م، وقد ورد ذكر الثموديين في القرآن الكريم: >وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى<

والنقوش الثمودية موجزة جداً وهي قريبة الأسلوب إلى العربية الفصحى، ومن صور الخط الثمودي كالآتي:

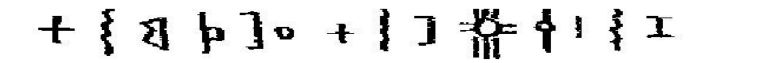

حل رموزه إلى العربية: (ذ ن- ل ق ض- ب ن ت- ع ب د- م ن ت)

وإذا ألحقنا بهذه الأصوات الساكنة أصوات المد التي تتبع بعضها والتي لا يرمز إليها هذا النقش، تصبح كلماته على الصورة الآتية:>هذا قبر لقيض بنت عبد مناة<

٢- النقوش الصفوية: وهي نقوش منسوبة إلى المكان الذي وجدت فيه، فقد وجد أكثرها جنوب شرق دمشق، في حرة تقع بين جبل الصفا وجبل الدروز، ويعتقد ليتمان أن النقوش الصفوية تعود إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، وعدد النقوش الصفوية المكتشفة يزيد على عدد النقوش الثمودية، والخط الذي كتبت به النقوش الصفوية يشبه الخط اللحياني، ولكنه يقرأ من مختلف الاتجاهات، ومن أصنامهم: اللات، وشيع القوم، ورضو، وجد، وعوذ، وأشع، وألت دين، وفيما يأتي صورة للنقش الصفوي:

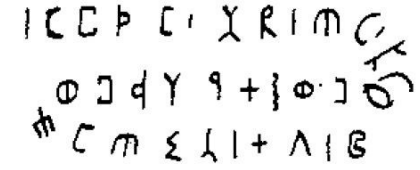

وكتابته إلى العربية: ل ب ر د– ب ن– ا ص ل ح– ب ن–ا ب ج ر– و ش ت ي–هـ–و ذ ب ح – هـ – س ل م.

وقراءته: لبرد بن أصلح بن أبجر وشتّى في هذا المكان وذبح ذبيحة، يا الله أقدم لك السلام.

٣– النقوش اللحيانية: وهي نقوش منسوبة إلى قبائل لحيان، وقد وجدت مجموعة من هذه النقوش في منطقة العُلا التي كان اسمها زمن النبي (ص) (وادي القرى)، ويبدو أن ظهور مملكة لحيان ارتبط بسقوط الدولة المعينية، كما يبدو أن أقدم النقوش اللحيانية لا يتجاوز القرن الثاني أو القرن الأول قبل الميلاد، وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد، وخط النقوش اللحيانية مشتق من الخط المسند، ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال، وفيما يأتي صورة للنقش اللحياني:

وكتابته وقراءته بالعربية:

ل ن ت ن ب ع ل (لبعل ناتان)

ب ن و ن ي هـ ن (بن واني هذا)

ملاحظ عامة حول النقوش السابقة:

١– هذه الخطوط جميعاً وإن اختلفت أشكالها مشتقة كلها من الخط المسند الذي يكتب من اليمين إلى الشمال وأحياناً بالطريقة الثعبانية.

٢– تتفق هذه اللغات كثيراً من جهة الخصائص والأصوات والقواعد والمفردات مع العربية الباقية فهي تشتمل على معظم الأصوات التي تمتاز بها العربية الباقية عن سائر أخواتها الساميات كأصوات الذال والثاء والغين والضاد، وتشتمل على أهم خصيصة لقواعد العربية هي الإعراب بالحركات وتسير على الطريقة العربية في صياغة أفعل التفضيل وحذف علامة الإعراب.

٣– فيها مجموعة أفعال نعرفها بصيغها ومعانيها في العربية، منها: (علم، وحل، بات)...

٤– فيها ألفاظ كثيرة معروفة في الحياة الصحراوية نحو: (وعل، جمل)، وغيرها.

٥– فيها عدد من الحروف المعروفة في العربية نحو: (إلى، من، لم، الباء، الفاء)...

٦- ثمة ظاهرتان في لغة هذه النقوش، وهما استخدام الاسم الموصول (ذ) واستخدام أداة التعريف (ه).

٧- هذه النقوش متأثرة تأثراً بيناً بالحضارة الآرامية والنبطية.

اللغة العربية الفصحى واللهجات مع دراسة تفاوت اللهجات:

الفرق بين اللغة واللهجة:

كان القدماء يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة (اللغة) حيناً و(اللحن) حيناً آخر، وفي العصر الجاهلي وصدر الإسلام كان يطلق على اللغة كلمة (اللسان)، وهذا موجود في معظم اللغات الجزرية، وقد جاء في القرآن الكريم عن استعمال كلمة اللسان بمعنى اللغة حوالي ٨ مرات كقوله تعالى: >وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه<، وقوله: >فإنا يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين<

واللهجة في الاصطلاح: هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات أفراد هذه البيئة جميعاً، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشتمل على عدة لهجات لكل منها ما يميزها.

تشكل الفصحى:

يشوب العلاقة بين العربية الفصحى ولهجاتها القديمة غموض واختلاط عند جمهرة الدارسين للعربية من المستشرقين وغيرهم؛ وذلك بسبب اهتمام اللغويين العرب القدماء اهتماماً بالغاً بدراسة الفصحى لغة القرآن الكريم وإهمالهم الدرس للهجات العربية القديمة.

فمن المستشرقين (نولدكه) الذي يرى أن الفروق صغيرة بين اللهجات العربية الشائعة في جزء كبير من الجزيرة العربية، وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات على حد سواء.

ويرى (جويدي) أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة ولا تمثل لهجة بعينها من هذه اللهجات.

ويرى (فيشر) أن العربية الفصحى تمثل لهجة معينة غير أنه لم يعينها.

أما (فوللرز) فقد خرج علينا بنظريته التي يرى فيها أن العربية الفصحى تعتمد على لغة البدو

في نجد واليمامة غير أن الشعراء غيروها كثيراً.

هذا الرأي يختلف تماماً عن رأي العلماء العرب القدماء، فالعربية الفصحى عندهم هي لغة البدو، فالعربي البدوي هو الحكم الفصل في العربية الفصيحة، وكان العرب يتخلصون من اختلاف اللهجات بالاعتراف بتساويها جميعاً في جواز الاحتجاج بها جميعاً مع وجود إشارات عابرة في كتب الرواية واللغة إلى بعض تلك اللهجات فهذا ابن جني على عنايته بدقائق الدراسة اللغوية لا يتردد في الخصائص في عقد فصل أسماه (اختلاف اللغات وكلها حجة) فعنده أن اللهجات تتساوى من حيث إنها قوية أو ضعيفة في كلام الفصحاء فلا ضير أن يقال: >رُغوة اللبن< و>رَغوته< و>رِغوته<، وعند ابن جني امتداد لذلك الأمر هو تداخل اللغات وتركبها فيتهم بقلة الفهم من يفسر هذا التداخل بالشذوذ أو ينسبه إلى الوضع اللغوي فعنده إذا اختلف رجلان في >الصقر< أو >السقر< وقال آخر: >الزقر< هذا عنده من تداخل اللغات.

على هذا الأساس من تساوي اللهجات العربية جميعاً في جواز الاحتجاج بها لم تكن ثمة بواعث قوية تحمل القدماء على العناية باللهجات فوقعوا في التناقض حين استنبطوا قواعدهم من كل ما روي عن القبائل وأقحموا على الفصحى خصائص اللهجات المتباينة بوجوهها المتعددة، ومنشأ هذا كله خلطهم بين اللغة الأدبية المثالية الموحدة وبين لهجات التخاطب العامة على حين أن شرط اللغة هو الاطراد والتوحد في الخصائص.

الأسباب التي ساعدت على نشوء اللغة المشتركة:

نشأت اللغة المشتركة ونمت وازدهرت قبل مجيء الإسلام والأسباب التي ساعدت على نشوء اللغة المشتركة هي كالآتي:

١- السبب الديني: فذلك لأن هذه اللغة نشأت في مكة وبلد الله الحرام لأن بيئة مكة هي بيئة مقدسة يفد إليها العرب من كل مكان ليحجوا إليها ويؤدي هذا إلى اجتماع فريق كبير من العرب ويختلطون بأهلها ومن هذا الاختلاط نشأ ما يسمى اللغة المشتركة.

٢- السبب السياسي: إن هذه القبائل لم تفد إلى مكة للحج وللعبادة فقط، وإنما ليشهدوا تلك الأسواق التي تقام في مكة للبيع والشراء، وكان يعقد فيها ندوات أدبية للخطباء والشعراء كما كانت الحال في سوق عكاظ وهناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة عن طريق الاختلاط بين أهل مكة والوافدين إليها، وقد حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة إلى قبائلها فانتشرت بين أنحاء الجزيرة

العربية.

ازدادت هذه اللغة نمواً وازدهاراً بنزول القرآن الذي وحد العربية وأوجد اللغة المشتركة لذا اختار القرآن هذه اللغة ونزل بها وهذا يعد عاملاً دينياً.

٣- عامل اقتصادي: إن أهل مكة كانوا تجاراً ينتقلون إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، هذا النشاط التجاري قد أتاح لهم الثراء، ومن ملك المال واحتضن الدين فقد تحقق له سلطان سياسي قوي؛ ولهذا كانت اللهجة القرشية من أقوى اللهجات أثراً في تحقيق اللغة العربية الفصحى.

صفات اللغة العربية المشتركة:

١- إنها فوق مستوى العامة، فهي لم تكن في متناول جميع العرب بل كانت في مستوى أرقى وأسمى، وإذا اتخذنا القرآن الكريم أنموذجاً للغة المشتركة وجدنا العرب ينظرون إليه وإلى أسلوبه نظرة أسمى حتى من آثارهم الأدبية الأخرى لأنه تحداهم وأعجزهم ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله.

٢- لا تنتمي صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها، بمعنى أن السامع لا يجد الصفات المحلية للهجات، فاللغة المشتركة ليست لغة قريش أو تميم أو قيس أو غيرها من قبائل العرب بل هي مزيج من كل هذا، وقد يقال: إن كثيراً من الشواهد الشعرية في كتب النحو واللغة تضم شذوذاً ينسب إلى لهجات القبائل المختلفة؛ فإذا كنا نحسن الظن بروايتها نفسرها كالآتي:

أ- هي تنتمي إلى الأدب الشعبي أو أدب القبيلة؛ فهناك أدبان الرسمي والشعبي الذي يعرض القصص والفكاهات ولكنه لم يُروَ لنا لأن الرواة ينظرون إليه نظرة احتقار، ومع هذا الإهمال قد تسرب إلينا بعضه، كقول الشاعر:

إن أباهـــا وأبـــا أباهـــا قد بلغا في المجد غايتاها

ب- إن الشعر القديم كان باللغة المشتركة، ولكنه انحرف بعضه على ألسنة الناس.

وأما إذا ساء ظننا برواية هذه الشواهد فيمكن أن نتصور أن النحاة هم الذين وضعوا هذه الأبيات أو غيروا موضع الشاهد منها؛ ليضعوا القواعد حسبما شاء لهم الهواء كما قال السجستاني عن البيت المتقدم: >سألت عن هذه الأبيات أبا عبيدة، فقال: انقط عليهن! هذا من صنعة المفضل<

أسباب نشأة اللهجات:

١- أسباب جغرافية: إذ كان أصحاب اللغة الواحدة يعيشون في بيئة جغرافية واسعة تختلف الطبيعة فيها من مكان لمكان كأن توجد جبال أو وديان تفصل بقعة عن أخرى بحيث ينشأ عن ذلك انعزال مجموعة من الناس عن مجموعة فيؤدي ذلك مع الزمن إلى وجود لهجة تختلف عن لهجة ثانية تنتمي إلى اللغة نفسه، والذين يعيشون في بيئة زراعية يتكلمون لهجة غير التي يتكلمها من يعيش في بيئة صحراوية.

٢- أسباب اجتماعية: إن المجتمع الإنساني بطبقاته المختلفة يؤثر في وجود اللهجات، فالطبقة الارستقراطية مثلاً تتخذ لهجة غير لهجة الطبقة الوسطى في المجتمع، ويلحق ذلك ما يلاحظ من خلافات لهجية بين الطبقات المهنية إذ تنشأ لهجات تجارية وأخرى صناعية وهكذا.

٣- احتكاك اللغات واختلاطها نتيجة غزو أو هجرات أو تجاور وهو يعد من أهم الأسباب التي تؤدي إلى نشأة اللهجات فقد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلم أهلها لغة أخرى فيقوم صراع بين اللغتين الغازية والمغزوة، وتكون النتيجة إما القضاء على إحدى اللغتين يكاد يكون قضاء تاماً أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة مثال ذلك غزو العرب لجهات متعددة فقد تغلبت على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر وعلى البربرية في بلاد المغرب والفارسية في بعض بقاع مملكة فارس القديمة وكذلك غزو الرومان لجهات كثيرة في أوربا جعلت الرومانية تحل محل عدة لغات.

أهمية دراسة اللهجات القديمة:

١- من خلال البحث في اللهجات العربية الحديثة يتبين أنها ترجع في كثير من الحالات إلى اللهجات القديمة أكثر من رجوعها إلى الفصحى.

٢- تفيد دراسة اللهجات القديمة بالإجابة عن السؤال هل الفصحى ولغة الشعر عبارة عن حصيلة لهجات عدة أو أنها لهجة قبيلة معينة.

٣- تفيد هذه الدراسة في معرفة مصادر القراءات القرآنية المختلفة.